

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير: طه حسين

فهرس

٥٠٧ حول رسائل سيسرون طه حسين
٥٢٠ مشكلة تويستا والبحر الأدرياتي محمد رفعت
٥٢٩ مرحلتان في تاريخ مصر العام سليمان حزين
٥٢٩ ليل وصباح (قصيدة) عبد الكريم بن ثابت
٥٤٢ البحث عن الطلق ج. ب. سارتر
٥٥ على الشاطئ* (قصيدة) ابراهيم مجد نجا
٥٥٦ السياحية سلامة موسى
٥٦٤ سافرنارولا حسن محمود
٥٧٦ مكسيم غوركي عقيل هاشم
٥٨٦ فن الكتابة هيلديّة زالوشر
٥٩٤ مسودات الشعراء محمد عبده عزام
٥٩٩ الآراء التي تسيرنا محمود محمود
٦١٠ شاعر فيلسوف حمزة طاهر
٦١٦ تناؤن (قصيدة) حسن كامل الصبري
٦١٨ الدانيمرك أثناء الاحتلال الألماني وبعده هنري برلين
٦٢٨ جولة مستطلع في المسرح بشر فارس

من هنا وهناك (مير بصري - السيد فرج - يوسف يمبوب حداد)
شهرية الفن - شهرية السياسة الدولية - شهرية السيف
من كتب الشرق والغرب - من وراء البحار - ظهر حلوتنا
في مجلات الشرق - في مجلات الغرب



تصدرها دار الكاتب المصري
شبكة ساهم منسقة
القاهرة

الكاتب المصري



مايو ١٩٤٨

جمادى الثانية ١٣٦٧

مجلد ٨ - عدد ٣٢

السنة الثالثة

حول رسائل سيسرون

لست في حاجة إلى أن أعرف إليك سيسرون ، كما ينطق به الفرنسيون ، أو تشرتشيرون ، كما ينطق به الايطاليون ، أو كيكيرون ، كما ينطق به اللاتينيون فيما يقال . فهو زعيم الخطابة اللاتينية غير منازع ، وهو الزعيم الثاني للخطابة العالمية غير منازع أيضاً بعد ديموستين الخطيب اليوناني العظيم . والعلم بمكانته في الخطابة ، وبمكانته في السياسة ، وبمكانته في الفلسفة ، وبمركزه الممتاز في حياة الجمهورية الرومانية ، وجهاده في الاحتفاظ بهذه الجمهورية ، وموته في هذا الجهاد ، من أوليات الثقافة التي تلتقى إلى الشباب في مدارسهم الثانوية . ولكني مع ذلك سأحدثك عن سيسرون لأعرض عليك منه صورة أقل ما توصف به أنها مخالفة كل المخالفة لما توارثت الأجيال من أمره منذ عشرين قرناً .

ولست أنا الذي أستكشف هذه الصورة أو أبتكرها ، فلست من هذا كله في شيء ، وإنما الذي استكشف هذه الصورة وعرضها على الناس ، عالم فرنسي عظيم ، هو الأستاذ جيروم كاركوينو عضو المجمع العلمي الفرنسي ومدير مدرسة المعلمين العليا في باريس سابقاً ، والذي امتحن امتحاناً قاسياً أثناء الحرب الأخيرة ؛ لأنه تولى وزارة التربية الوطنية في حكومة الماريشال بيتان ، فخرج من هذا الامتحان نقيماً رضيماً . وهو يعرض علينا هذه الصورة في كتاب ضخّم يأتلف من مجلدين ، وتنيف صفحاته على تسعمائة صفحة

وقد ظهر هذا الكتاب في أوائل هذا العام ، فتلقاه النقاد أحسن لقاء ، وقدموه إلى القراء تقديمًا مختلفًا : فمنهم من قدمه تقديمًا فيه شيء من دعاية وعبث ، ومنهم من قدمه تقديمًا فيه شيء من غضب وغيظ . ولكن الكتاب أرفع مكانة من عبث العابثين ، وغضب الغاضبين ، لأنه آية من آيات البحث العلمي الرفيع بأدق معاني هذه الكلمة وأعقها وأوسعها في وقت واحد .

فأما الذين قدموا الكتاب في شيء من دعاية ، فهم النقاد الأدباء الذين ورثوا عن الأجيال هذه الصورة التقليدية لسيسرون ، وأقاموا حياتهم الثقافية عليها ، وشقوا أثناء التعلم والطلب بما كان الأساتذة يفرضون عليهم من ترجمة النصوص التي تركها هذا الكاتب العظيم . فهؤلاء قد نشأوا على أن سيسرون هو الصورة الصادقة للجد الذي ليس بعده جد ، والحزم الذي ليس بعده حزم ، والارتفاع عن صغائر الأمور ، والتنزّه عما يشين رجل الصدق . وهو الذي تولى منصب القضاء الأعلى في الجمهورية ، فكان أنزه القضاة وأعفهم وأكرمهم وأحرصهم على العدل وأشدّهم توجيهاً للانصاف . وتولى رئاسة الجمهورية ، فكان حازماً صارماً ، بعيد النظر نافذ البصيرة ، سديد الرأي ، منقذاً للوطن من شر عظيم . وتولى الحكم في أحد الأقاليم ، فكان مثلاً ممتازاً للنزاهة والعدالة والصرامة ، والضرب على أيدي الذين يستغلون أهل الأقاليم ويستذلونهم ويتخذون أموالهم معونة بينهم ، كما كان عمر بن الخطاب رحمه الله يقول واشتغل بين ذلك كله بالحمامة ، فكان أفصح المحامين لساناً ، وأرفعهم بياناً ، وأمضاهم حجة ، وأبعدهم عما يجانب كرامة الحمامة ، وأرجهم للضعيف ، وأرفعهم بالظلوم . وكان إلى هذا كله أستاذاً ممتازاً من أساتذة البيان ، وفيلسوفاً موقفاً ، وحكياً مهذباً ، معتدلاً الرأي ، معتدلاً السيرة ، معتدلاً المزاج . وقد امتحنت الجمهورية الرومانية بدكتاتورية قيصر ، وطغيان أنطوان ، واستبداد أوكتاف . فقاوم الدكتاتورية والطغيان والاستبداد بيده ولسانه وقلبه ، ولقى حتفه في هذه المقاومة حين ائتلف الطاغيتان أنطوان وأوكتاف ، وأهدرت بهذا الائتلاف دماء كثير من أعلام الجمهورية وأنصار النظام الموروث .

هذه هي الصورة التي توارثتها الأجيال عن سيسرون منذ ألفي عام ، والتي نشأ عليها الأدباء والمعلمون والمتعلمون والمؤرخون . فلما ظهر هذا الكتاب ،

وعرض على الناس صورة مخالفة لهذه الصورة كل المخالفة ، لم يملك بعض النقاد نفسه ، فتلقى الكتاب وقدمه إلى الناس في دعاية شامتة أو شائنة مداعبة . وكتب الأستاذ إميل هنريو عضو المجمع اللغوي الفرنسي ، في جريدة «الموند» يظهر شامتته هذه المتفكهة المداعبة ، بهذا الكاتب العظيم الذى أشقى الشباب وما زال يشقيهم بنصومه العسيرة ، وأشقى الناس وما زال يشقيهم بسيرته القاسية الصارمة وجده المروع البشع . ثم هو يظهر الآن بفضل هذا الكتاب رجلا من الناس ، فيه ما فى الناس من ضعف ، وفيه ما فيهم من عيوب . وأما العلماء والمؤرخون منهم خاصة ، فقد ضاقوا بهذه الصورة التى تغض من هذا الرجل الذى توارثت الأجيال رفعته واستيازه . وكتب الأستاذ مارو فى جريدة «الموند» الأسبوعية يقول : «إن سيسرون رجل مكذوب عليه» . والشئ الذى لا أشك فيه ، هو أن الشامتين بسيسرون والغاضبين له ، إنما أظهروا ما أظهروا من الشماتة والغضب ، لأنهم لم ينظروا فى الكتاب إلا أيسر النظر وأقله تعمقاً واستقصاء . فالكتاب ، كما رأيت آنفاً ، ضخم توشك صفحاته أن تبلغ الألف ، وهو على ذلك كتاب علم ، قد التزم صاحبه دقائق المنهج التاريخي فى عرض ما أراد عرضه من الحقائق ، وحل ما أراد حله من المشكلات . وقراءته ليست يسيرة ولا هينة ، وهى تحتاج إلى كثير من الأناة والصبر وحسن التأنى . والحكم له أو عليه لا ينبغى أن يصدر إلا بعد هذه القراءة المستأنية المستقصية الصابرة ، التى لا تحتاج إلى الأيام وإنما تحتاج إلى الأسابيع ، التى لا تكتفى بنفسها وإنما تكلف القارى كثيراً من مراجعة النصوص وامتحان الأحكام التى يصدرها المؤلف بالرجوع إلى ما يستشهد به من المصادر . وهذه المصادر كثيرة مختلفة ، منها القديم والحديث ، ومنها ما كتب باللاتينية وما كتب باليونانية ، ومنها ما كتب فى اللغات الحية على اختلافها . ولست أزعم أنى قد نهضت بهذه القراءة المستأنية المستبصرة ، ولكنى لست أزعم كذلك أنى سأحكم لهذا الكتاب أو أحكم عليه . فلست أحسن هذا العلم ، ولست أبيع لنفسى أن أحكم بين المختصين فيه ، وإنما أنا رجل متواضع ، معتدل المذهب والرأى والغاية ، لا أريد إلا إلى شئ يسير جدا ، هو أن أعرض على قراء العربية لوناً من ألوان البحث الذى يفرغ له بعض الناس فى أوروبا وأمريكا ، وينفقون فيه حياتهم ، وينعمون إن أتيح لهم

أن ينفقوا حياتهم فيه ، ويجدون بعد ذلك جماعة من أكفأهم يتلقون ما يكتبون بالنقد والبحث فينكرون ويعرفون ، وجماعات أخرى من عامة المثقفين يتلقون ما يكتبون على أنه غذاء للعقول والقلوب ، ومتاع يستريحون إليه مما يملأ حياتهم من الهموم والخطوب . وأنا أرجو أن يكون في إظهار قرأنا على هذا اللون من ألوان البحث ما يغرى شبابتنا بالدرس الهادى المستأنى الذى تخلص النية فيه للعلم وحده ، والذى لا تلتصم به منفعة قريبة أو بعيدة ، ولا تبتغى به شهرة واسعة أو ضيقة ، وإنما يقصد به إلى هذه المتعة العليا ، متعة المعرفة الخالصة التى تكشف الحق وتصحح التاريخ .

وينبغى أن أعرض هذا الكتاب مبتدئاً من آخره لا من أوله ، ذلك أجدر أن يجعل فهمه يسيراً ، والعلم به محبباً إلى النفوس .

فنحن في أواسط القرن الأول قبل المسيح حين لم يبق من هذا القرن إلا ثلثه ، وقد تم الائتلاف بين أوكتاف وانطوان على الاستئثار بأمر الجمهورية الرومانية وأقاليمها ، وذهب في سبيل هذا الائتلاف كثير من أنصار الجمهورية ، مات بعضهم في الحرب ومات بعضهم بأمر المؤتلفين ، الذى صدر إما عن رغبة في الانتقام ، وإما عن رغبة في تثبيت النظام الجديد . وكان سيسرون من الذين قاوموا النظام الجديد ، بل كان على رأس المديرين لهذه المقاومة في مجلس الشيوخ ، عن أمره كانت جيوش الجمهورية تصدر في مقاومتها للطغاة والمستأثرين في البر والبحر وفي الشرق والغرب . فلما تم الائتلاف وأتيح الانتصار للمؤتلفين ، أهدر دم سيسرون فيما أهدر من الدماء ، فقتل سنة ثلاث وأربعين قبل المسيح . وكان لسيسرون صديق حميم ، أجه منذ عهد الصبا ، ودرس العلم معه أثناء الشباب ، ثم تفرقت بهما طرق الحياة ، فمضى سيسرون في طريق السياسة ، ومضى صديقه أتيكوس في طريق المال . وامتاز كل من الرجلين فيما اختار لنفسه من طريق ، فامتاز سيسرون في السياسة حتى أصبح في بعض أوقاته رئيساً للجمهورية ، ووظل في أكثر حياته زعيماً للديمقراطية المعتدلة . وامتاز أتيكوس في المال حتى أصبح أضخم أهل روما ثراءً وأوسعهم غنى ، وأعظمهم من أجل ذلك سلطاناً على الأغنياء والفقراء جميعاً . ولكن الرجلين على هذا التفرق احتفظا بالمودة الخالصة والصدقة الصافية ، واشتركا بحكم هذه المودة ، في حب العلم والأدب والفن ، وهذا

الترف الرفيع الذى يتصل بحياة العقول والقلوب . وقد ورث أتيكوس عن أسرته ثروة ضخمة ، فلم يكد يجاوز طور الطلب حتى فرغ لهذه الثروة يدبرها ويشمرها وينميها ، وأقام بينه وبين السياسة سوراً كشيافاً حرم على نفسه أن يعبره أو يتفد منه ، وحرم على السياسة أن تنفذ إليه مهما تحدث الأحداث ومهما تكن الخطوب . وهو من أجل ذلك يهجر مدينة روما حين تعصف بها الثورة السياسية فى أيام سولا ، ويعبر البحر إلى بلاد اليونان ، فيقيم فى أتينا وفى غيرها من المدن اليونانية ما شاء الله أن يقيم . حتى إذا هدأت الثورة واستقرت الأمور ، عاد إلى روما وقد أضاف إلى ثرائه ثراء ، وإلى علمه علماً ، وقد استقر فى نفوس الساسة أنه ليس من السياسة فى شىء ، وأنه لا يريد أن يكون منها فى شىء ، وإنما هو رجل مال وعلم ، لا يريد أن يزيد على المال والعلم شيئاً . وهو من أجل ذلك صديق للساسة جميعاً مهما تكن أحزابهم ، ومهما يحسنوا أو يسيئوا ، ومهما تختلف بهم الظروف . قد زهد فى مناصب الحكم فتركها لهم ، وزهد فى مجلس الشيوخ فتركه لهم ، وزهد فى الطبقة الأرستقراطية الممتازة فتركها للذين يسعون إليها من أصحاب الطمع والطموح ، وفتح بأن يشمر ثروته ، وينشئ فى روما وفى الأقاليم مصرفاً هو أعظم المصارف وأكثرها تشعباً وأكثرها عملاء . فهو يقرض المحتاجين إلى أن يقترضوا ، ويدير لأصحاب الثراء ثراءهم ، ويحفظ على أصحاب الأموال أموالهم . يعتدل فيما يأخذ على القروض من فائدة ، ويسخوف فيما يرد على أصحاب الأموال من ربح ، ويكفل بذلك لنفسه حب الموسرين والمعسرين جميعاً .

وقد شغف أتيكوس بالفلسفة والأدب والفن ، فلم يلبث أن شغف بالكتب وجعل يجمعها وينشئ لنفسه خزانة كتب ممتازة ، ويسرت له ذلك إقامته فى بلاد اليونان وثروته الضخمة ، فجعل يجمع المخطوطات القديمة ونقائس الآثار ما وجد إلى ذلك سبيلاً . وانتقل بهذا كله إلى روما ، ودعا الناس إلى داره ، فأروا وقرأوا وأعجبوا ، وأحبوا أن يكون لهم مثل ما رأوا من آيات الأدب والفن والفلسفة . وما هى إلا أن يصبح أتيكوس خبيراً يشير على المثقفين والمترفين ، ثم وسيطاً يشتري لهم من الكتب والآثار وطرائف الفن ما يريدون . وعنده كتب كثيرة نادرة ليس من اليسير أن تقتنى ، وهو لا يعير شيئاً من كتبه ، فالتاس مخيرون بين أن يسعوا إلى داره لينظروا فى هذه الكتب ، وبين

أن يستنسخوا هذه الكتب إن أرادوا أن يملكوها . وإذا أتيكوس يؤلف جماعة من الرقيق المثقفين ، منهم من أتقن تنظيم خزانات الكتب والقيام عليها ، ومنهم من أتقن النسخ والمراجعة والمعارضة ، وإذا هو قد أنشأ داراً للنشر عظيمة الخطر في روما ، يعمل فيها النساخ والمراجعون ينسخون للأدباء ما يحتاجون إلى استنساخه من الكتب ، ويسبقون إلى نسخ طائفة من الكتب اليونانية واللاتينية تشتد إليها حاجة القراء . وما هي إلا أن تتسع دار النشر هذه ، فلا تكتفى بنسخ القديم وإذاعته ، وإنما تضيف إلى ذلك نشر الآثار التي ينشئها المحدثون . وإذا هذه الدار قد أصبحت أشبه شئ بدور النشر الحديثة التي نعرفها الآن ، لا يكاد الشاعر ينشئ ديواناً ولا يكاد الكاتب يؤلف كتاباً حتى يدفعه إلى أتيكوس ، فإذا هو يسخ وينشر ، لا في روما وحدها ، بل في إيطاليا ، ثم في الأقاليم الرومانية في الشرق والغرب . وكذلك أصبح أتيكوس أكبر رجال المال في روما ، ويسر له ذلك الاتصال برجال السياسة على اختلاف أحزابهم وبأكبر رجال النشر للقديم والحديث ، ويسر له ذلك الاتصال برجال الثقافة على اختلاف أحزابهم أيضاً . وإذا كان سيسرون من المتمازين في السياسة والثقافة جميعاً — وسنرى أنه كان من المتمازين في المال أيضاً — فقد اتصلت الأسباب الوثيقة اليوميه بينه وبين أتيكوس . وقد أشرت آنفاً إلى أنهما كانا صديقين منذ أيام الطلب في عهد الصبا والشباب ، فقد زادت صداقتهما قوة وتوثقاً على مر الأيام وتعاقب الأحداث . ومن المحقق أن أتيكوس كان أشد الناس بسيسرون صلة ، وأدناهم منه مكانة ، وأعرفهم بدخائل أمره كلها ، سواء منها ما يتصل بالحياة العامة وما يتصل بالحياة الخاصة في أدق خفاياها . وكان أتيكوس قد أحب مذهب أبيقور واتخذ لنفسه ديناً ، وتأثرت به حياته العقلية ، كما تأثرت به سيرنه اليومية اشد التأثر وأقواه . والقراء يعلمون أن أخص ما يمتاز به مذهب أبيقور من الناحية الخلقية ، هو أنه يجعل اللذة غاية الغايات للالسان ، ويرى أن هذه اللذة لا تخلص ولا تستقيم لطالباها إلا إذا برئت من الألم ، فلم تعقبه ولم تورط فيه . فالرجل الحكيم في هذا المذهب خليق قبل كل شئ أن يتجنب الألم ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وأن يبتغي اللذة ما وجد إليها سبيلاً أيضاً . وإذا كانت اللذات في أكثر الأحيان مصادر للألم ودوافع إليه ، فالرجل الحكيم خليق أن

يتجنب اللذات نفسها ليتجنب ما تعقب من الألم . وخير للرجل الحكيم أن يفرض على نفسه حياة غليظة ساذجة فيها شيء من شظف وقسوة ، من أن يقبل على الحياة الهنية اللينة ويستجيب للمغريات ، فيستمتع بلذات كثيرة تدفعه إلى آلام كثيرة . ومذهب أبيقور يمتاز كذلك بأنه حرر الانسان من خوف الموت وما يمكن أن يكون بعد الموت . فالآله لا يحفلون بالانسان ولا يسألونه عن عمله ، ولا يجوزونه بالخير خيراً ولا بالشر شراً ، وإنما الانسان مسئول عن نفسه أمام نفسه أثناء الحياة ، فاذا أدركه الموت فقد عاد إلى العدم الذي خرج منه حين دخل الحياة . وإذن فليس للانسان أن يفكر إلا في حياته هذه التي يحياها ، يلتمس فيها لنفسه الخير والمنفعة ، ويصرف فيها عن نفسه الشر والمضرة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . والصدقة نفسها عرض من أعراض هذه الحياة ، لا تلتمس لنفسها ، وإنما تلتمس لما تتيح للانسان من لذة ومنفعة . فالانسان خليق أن يلتصقها ويستمسك بها ما أتاحت له لذة ومنفعة . وهو خليق أن يجتنبها ويتخلص منها إن عرضته لشر أو ضرر . وهو خليق ألا يحفل بها ولا يلتفت إليها إن لم تغن عنه شيئاً .

كذلك كانت الصداقة التي ادخرها أتيكوس لخليله الوفي الحميم سيسرون ، صداقة قوية متينة ما جلبت له نفعاً ولذة . وكان سيسرون مصدرراً للذة والنفع جميعاً : مصدرراً للنفع لمكانه من السياسة والسلطان ، ومصدرراً للذة لمكانه من الثقافة العليا ، وما امتاز به من رقة الشائل وعذوبة الحديث ، وجمال المحضر والمغيب . ومن أجل ذلك كان الرجلان يلتقيان في كل يوم إن أتيح لهما اللقاء ، فان حيل بينهما وبينه عمداً إلى الرسائل تغنيهما عن هذا اللقاء . ولم يقف الأمر بين الرجلين عند هذه الصداقة ، وإنما نشأت بينهما صلات المصاهرة ، فترزوج كنتوس سيسرون أخو أدينا العظيم من بونبونيا أخت أتيكوس مالينا العظيم أيضاً . فليس من الغريب أن يلجأ سيسرون إلى صديقه وصاحب صهره في كل ما ينويه من الأمر . فهو مدبر ثروته ومستشاره في السياسة ، وناشر كتبه ومنتظم مكتبته ، والداخل في الجليل واليسير من أمره كله ، حتى يقتل سيسرون في أواخر سنة ثلاث وأربعين قبل المسيح .

وقد يسأل القارىء ما حاجتنا إلى هذا التفصيل الطويل ؟ فلينتظر قليلاً ، فستظهر الحاجة إلى هذا التفصيل واضحة كل الوضوح ، بعد أن نضيف لها

تفصيلاً آخر يتصل بحياة أتيكوس نفسه. فقد أشرت إلى تأثيره بمذهب أبيقور ، واضطراره بحكم هذا المذهب إلى أن يتجنب الانغماس في الترف واللذة، وقد دفعه ذلك إلى أن يعيش أعزب دهنراً من حياته، ثم اختار لنفسه زوجاً ليست ممتازة الطبقة، وإتمامه من أسرة ضئيلة فقيرة ليست بذات خطر. ورزق من هذا الزواج طفلة لم يمنحها من عنايته إلا مقداراً معتدلاً. ولكن ثراه وحياده وثقافته وامتياز مكانته في روما، كل ذلك قرب منه أوكتاف، حين استقامت له الأمور وأصبح مستأثراً مع أنطوان بالسلطان الروماني، وإذا هو صديق لأتيكوس، وإذا هو يتجاوز الصداقة إلى الصهر، فيصبح حفيده ختنا لأتيكوس. وحفيده هذا هو الذي سيخلف أوغسطس على عرش الامبراطورية الرومانية، بعد موته، ويسمى تيبيريوس.

هذه الصلات التي توثقت بين أوكتاف عظيم السياسة الرومانية، وأتيكوس عظيم المال الروماني، هي التي دفعت أتيكوس إلى نشر الرسائل الخاصة التي كتبها سيسرون، والتي اتخذها الأستاذ جيروم كاركوبينو موضوعاً لكتابه، واستخرج منها الصورة الجديدة لسيسرون، فأثارت ما أثارت من الرضا والسخط ومن الوفاق والخلاف. والفكرة الأساسية لهذا الكتاب، وهي التي لم يلتفت إليها النقاد الأدباء لأنها تعنى العلم أكثر مما تعنى الأدب، هي أولاً أن رسائل سيسرون إنما نشرت في عهد أوكتاف قبل أن ينفرد بالحكم، وأثناء التنافس الشديد بينه وبين أنطوان، وأنها نشرت بواسطة أتيكوس، وصدرت عن داره تلك التي أشرنا إليها منذ حين، ونشرت على دفعتين: إحداهما بين سنة خمس وثلاثين واثنتين وثلاثين قبل المسيح، وهي تشمل على الرسائل الخاصة التي كتبها سيسرون لأتيكوس، والثانية سنة اثنتين وثلاثين قبل المسيح، وهي تشمل على الرسائل الخاصة التي كتبها سيسرون إلى ابنه وأخيه وصديقه بروتوس ونفر آخرين من الأصدقاء.

فأما الجزء الأول من هذه الرسائل، فقد نشر دفاعاً عن أوكتاف وأنطوان اللذين قتلا سيسرون. وأما الجزء الثاني فقد نشر مبالغة في إذاعة الدعوة لأوكتاف حين اشتدت الخصومة والمنافسة بينه وبين أنطوان. وكان سيسرون ضحية لنشر الجزأين جميعاً، فهو نشر قصد به إلى السياسة لا إلى الأدب، وإلى الغض من سيسرون لا إلى التنويه بذكره والاحسان إليه. قصد بالجزء

الأول إلى إظهار ما امتلأت به حياة سيسرون من الاضطراب الشديد الذى يتصل بالسياسة ، ويتصل بالمال ، ويتصل بالأخلاق ، ليتبين الناس أن الذين قتلوا سيسرون لم يقتلوا فيلسوفاً مصلحاً عظيماً ممتازاً في خلقه وسيرته ورأيه ، وإنما قتلوا سياسياً متقلباً مسرفاً في التقلب ، أنفق حياته كلها ملتصقاً لمنفعته الخاصة القريبة الحقيرة ، مخادعاً للناس عن نفسه وعن آرائه وعن سيرته . فهو يزعم أنه أنقذ الجمهورية حين كان رئيساً لها من خطر الثورة ، مع أن كتبه الخاصة تعترف عليه بأنه كان صديقاً لكاتيلينا زعيم الثورة ، ولم يهاجمه إلا حين عجز عن أن ينتفع به . وهو يزعم أنه كان نصيراً للنظام الجمهورى حين ظهر يوليوس قيصر ، ولكن كتبه الخاصة تعترف عليه بأنه تقرب إلى قيصر حتى ظفر منه بالعطف والعمو والأمن ، وظل يتملقه ما استقامت له الأمور ، فلما قتل شمت بقتله ، وابتهج لموته ، وظاهر قاتليه . وهو يزعم أنه نصير للنظام الجمهورى بعد مقتل قيصر ، ولكن كتبه الخاصة تعترف عليه بأنه يتملق أنطوان ما وسعه التملق ، وتملق أوكتاف ما وجد إلى تملقه سبيلاً . فاذا كان أوكتاف وأنطوان قد قتلاه لأنه تنكر لهما قبل انثلافهما ، فهما لم يزيدا على أن قتلا خصماً سياسياً كاد لهما وألب عليهما ، وجدد في حربهما بعد أن كان لهما صديقاً يبتغى إلى موادتهما الوسائل . فحبه للنظام الجمهورى كذب إذن ، لأنه لم يجب إلا نفسه ، ولم يبتغ إلا منفعته . وأخلاقه لم تكن ذات خطر ، فقد كان شرها إلى المال ، تعترف عليه كتبه بأنه ارتشى من قيصر أولاً ومن غير قيصر ثانياً ، وبأنه ملك في روما وخارج روما ثمانى عشرة داراً ، من تلك الدور الفخمة التى كان الأغنياء الرومانيون يملكونها ، وكانت قيمة تلك الدور نحو عشرين مليوناً من الدراخمات . وكان مسرفاً شديد الاسراف ، يدفعه الاسراف إلى الاعسار أحياناً ، ويدفعه الاعسار إلى التماس المال من غير وجهه . فهو يطلق امرأته التى عاشت معه خمسة وثلاثين عاماً وولدت له ابنه ماركوس وابنته تولىا ، لسبب واحد وهى أن امرأته لم تتمكن من ثروتها حين احتاج إلى هذه الثروة ، فيطلقها . ويتزوج وقد قارب الستين فتاة في العشرين من عمرها لا لشيء إلا لثروتها . وهو يدفع ابنته إلى الزواج والطلاق ثلاث مرات للمال وللمال وحده ، حتى تموت البائسة حزناً . ثم هو يزعم أنه محام نزيه ، حريص على كرامة المهنة ، ولكن نزاهته هذه

ظاهرة لا تثبت أمام البحث والتمحيص . فقد كان قانون الحمامة يحظر على المحامين أن يأخذوا من موكلهم أجوراً لما ينهضون به من أعباء الدفاع عنهم أمام القضاء . وكان سيسرون نفسه يخاصم بعض زملائه ، ويزعم أنهم يتقاضون هذه الأجور التي يحظرها القانون ، ولكنه هو نفسه كان يتقاضى أجره من موكله بطرق ملتوية لا تلائم النزاهة ولا الشرف . فكتبه تشهد عليه بأنه كان يتفق مع موكله مشافهة على أن يهدوا إليه الهدايا بعد أن يكسب لهم قضاياهم . وكانت هذه الهدايا تحمل إليه ، ولم تكن يسيرة ولا هينة ، وإنما كانت ضخمة عظيمة الخطر . فهو مثلاً قد ترفع عن أهل صقلية حين اتهموا حاكمهم بالاسراف عليهم في البغى والظلم ، فلما ربح لهم قضيتهم أهدوا إليه سفناً كثيرة قد شحنت قمحاً ، وكانت روما في حاجة إلى القمح ، وكان سيسرون يرشح نفسه للانتخاب في منصب من صاحب الدولة ، فما هي إلا أن يوزع القمح على أهل روما وينجح في الانتخاب . وترافع مرة عن أحد موكله فأهدى إليه بعد أن ربح القضية خزانة كتب كاملة كان يملكها في بلاد اليونان ، واحتاج نقلها مما وراء البحر إلى جهد عظيم وعناء كثير . ثم هو كان يزعم أنه رجل شريف في سيرته السياسية وفي كل ما يتصل بالانتخاب خاصة ، ولكن كتبه تشهد عليه بأن سياسته لم تكن إلا مداورة ومصانعة ، وأنه كان يصطنع من إفساد الانتخاب ، برشوة الناخبين وأخذ أصواتهم بالترغيب مرة وبالترهيب مرة أخرى ، ما كان يصطنعه غيره من المرشحين لمناصب الدولة .

وكان بعد هذا كله ، ينصح في كتبه وخطبه بالقصد والاعتدال وإيثار الشطف والخشونة . ولكن رسائله الخاصة تشهد عليه بأنه كان مترفاً مسرفاً في الترف ، يغلو في حب المظاهر ، ولا يطمئن إلا إذا نال من مظاهر الثروة والرفعة ما يلائم غروره الذي لاحد له . وكان على هذا كله شجاعاً في القول جباناً في السيرة ، يخاف حتى من ظله ، ويتملق رغبة في التملق وخوفاً على حياته وإيثاراً لعافيته ، ثم يسخر من هذا كله في رسائله الخاصة ، لأنه لم يكن يريد إلا أن يجيا ويستمتع بالحياة . وكان يخاصم الحكام المرتشين ويعرضهم للقضاء عليهم بالغرطات . ولكن كتبه تعترف عليه بأنه حين تولى الحكم في بعض الأقاليم أظهر سيرة حسنة ورفقاً بالرعية ، ولكنه أضمر مكرماً وقسوة ،

واستغل منصبه استغلالاً منكرًا . كل هذه الخصال والآثام تشهد بها الرسائل الخاصة التي أرسلها إلى صديقه أتيكوس ، وقد ارتفعت بينهما الكلفة وزال بينهما الحرج ، فأفضى كل منهما إلى صاحبه بذات نفسه في غير تحفظ ولا احتياط . وواضح جدا أن نشر هذه الرسائل بأمر أو كتاف إن قصد به إلى شيء فأنما يقصد به إلى الكيد لسيسرون بعد موته ، وإلى الاذاعة التي تُظهر من ثنائه على قيصر وأوكتاف وأنطوان ما كان يخفي ، ليعلم الجمهوريون أنه لم يكن زعيما مخلصاً صادقاً ، وإنما كان طالب منفعة وصاحب رياء .

أما الجزء الثاني من رسائل سيسرون فقد اشترك في نشره ماركوس بن سيسرون وتيرون مولاه ، وأشرف على عملهما أتيكوس نفسه . وهو يشتمل على رسائله إلى أعضاء أسرته ، وإلى بعض أصدقائه ، وإلى بروتوس منهم خاصة . وفي هذه الكتب ذم أي ذم لأنطوان وتحريض عليه ، وثناء على قيصر وأوكتاف ، وإظهار لتلون سيسرون في السياسة من جهة ، ولضعفه وغفلته من جهة أخرى . فواضح أن نشر هذه الرسائل يؤيد سياسة أو كتاف ويؤلب الناس على أنطوان . وقد نشرت هذه الرسائل بالضبط في الوقت الذي كان الحصان فيه يتهيأ للحرب التي انتصر فيها أوكتاف .

وهنا تثار مسألتان خطيرتان : إحداهما تتصل بالتاريخ قبل كل شيء ، وهي إلى أي حد يمكن الاطمئنان إلى هذه النظرية التي تجعل إذاعة هذه الرسائل مظهراً من مظاهر نشر الدعوة السياسية ؟ والجواب على هذا السؤال يسير ولكنه رائع حقا . فقد أظهر الأستاذ كاركوينيو أن السياسة الدكتاتورية في عهد قيصر وابنه أوكتاف ، لم تكن أقل مهارة ولا براعة ولا افتناناً في نشر الدعوة من سياسة الدكتاتورية في العصر الحديث . فقد ابتكر قيصر لأول مرة في التاريخ ، إنشاء الصحيفة اليومية التي تعلن في روما وتذاع في إيطاليا ، وترسل إلى الحكام في الأقاليم ، ويفرأ الناس فيها الحوادث التي تجدد في كل يوم . وبهذه الطريقة ابتكر قيصر السيطرة على العقول من طريق القراءة . ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما ابتكر قيصر كذلك البلاغات الرسمية التي تعلن إلى الناس أبناء الحرب كما تحب الحكومة أن تعلنها . ثم ابتكر الرقابة على ما يقرأ الناس من الكتب في المكاتب العامة ، فلم يكن يسمح لكتاب أن يعرض للقراءة إلا إذا أقره السطان وأذن بقراءته

ورضى عما فيه . وليس أدل على أن رسائل سيسرون إنما نشرت لاذاعة الدعوة من أن ردود أتيكوس عليها لم تنشر ، ومن أن أتيكوس قد ظفر بالحظوة كل الحظوة عند أوكتاف ، حتى أصبح صهراً للأسرة الامبرطورية ، ومن أن ماركوس بن سيسرون قد ظفر بالأمن بعد أن كان طريداً أهدر دمه ، ثم ظفر بالحظوة عند أوكتاف ، حتى بلغ المناصب الرفيعة في الدولة ، واستمتع بحياة لاهية مترفة كان يجب الفراغ لها أيام أبيه .

أما المسألة الثانية ، فهى إلى أى حد يمكن الاطمئنان إلى أن أتيكوس قد خان صديقه بعد موته على هذا النحو البشع ، وإلى أن ماركوس قد خان أباه بعد موته على هذا النحو البشع أيضاً ؟ فأما أتيكوس فقد رأيت أن مذهبه فى الأخلاق كان يعفيه من إثم هذه الخيانة . فقد كان سيسرون صديقه حين كان حياً يرتجى نفعه ويتقى شره ، فأما بعد أن مات ، فقد دخل فى العدم المطلق الذى لا يرتجى من أهله خير ، ولا يتقى منهم شر . وليس على أتيكوس بأس أمام مذهبه الخلقى من أن يخون ميتاً ليعخدم حياً ، هو المستأثر بالسلطان الذى يملك النفع كل النفع والضر كل الضر ، ويتحكم فى حياة الأحياء . وأما ماركوس فقد كان منذ شبابه الأول صاحب مجون وهو وفراغ ، فهو ضعيف الطبع قصير الهمة ، وهو بعد مدين بحياته لأوكتاف ، فكيف إذا أضاف أوكتاف إلى حياته شيئاً غير قليل من الشرف والترف والجاه ! والناس بعد ذلك هم الناس ، فى أكثرهم الضعف والخور والتهاك والأثرة ، وغير هذا كله من الخصال التى تغرى بالمكر والغدر ، وتدفع إلى الخيانة والاثم ، وتورط فى أشياء كثيرة تأبأها الأخلاق المكتوبة التى يقرها الفلاسفة ويدعو إليها المصلحون ، وتبميزها السيرة العاملة ، تجاهر بها أحياناً ، وتحافت بها أحياناً أخرى ، وتلتمس لها دائماً ما يقبل ومالا يقبل من التعلات والمعاذير .

أما أنا فقد أنفقت فى قراءة هذا الكتاب أسابيع ، ووجدت فى هذه القراءة فنوناً من الأدب والسياسة والتاريخ وفلسفة الأخلاق . ولم تثر هذه القراءة فى نفسى شماتة بسيسرون ولا رحمة له ولا إشفاقاً عليه . فما يضر الموق أن يشمت بهم الشامتون ، ولا ينفعهم أن يشفق عليهم المشفقون . وقد كان سيسرون رجلاً من معاصريه ، فيه ما فى معاصريه من خصال الخير والشر ، ولكنه

امتاز من معاصريه بتفوق عقله وقلبه ولسانه ، وفرض من أجل ذلك نفسه على الانسانية كلها إلى آخر الدهر .

والمثقفون يقرءون أطرافاً من حياة قيصر وابنه أوكتاف ، ثم لا يلبثون أن ينسوا ما قرءوا . ولكن المدارس والجامعات ستكون عقول الصبية والشباب بأدب سيسرون . وليس المهم أن يكون سيسرون رجلاً خيراً أو شريراً ، وإنما المهم أن يكون سيسرون قد ترك من الآثار ما ينفع الناس . ثم إن قراءتي لهذا الكتاب لم تثر في نفسي شيئاً من السخط قليلاً أو كثيراً ، على الذين خاصموا سيسرون في حياته ، أو خانوه بعد موته . فالناس دائماً هم الناس ، فيهم شر كثير وخير قليل ، ولم يصلوا بعد ذلك إلى العصر الذهبي الذي يصبحون فيه أحياناً أظهاراً لا يجد الشر إليهم سيلاً . وإنما الذي أَرْضاني كل الرضا ، وأمتعني كل الامتاع ، وعزى نفسي عما تمتلئ به الحياة الواقعة اليومية ، هو التفكير في هذا الأستاذ الشيخ الذي لم تصرفه الأحداث الخطيرة التي يمتحن بها العالم منذ سنين ، والتي امتحن بها وطنه أعسر الامتحان وأقساه ، والتي امتحن بها هو في ذات نفسه امتحاناً أليماً— لم تصرفه هذه الأحداث عن أن يفرغ لرسائل سيسرون ، فيدزسها هذا الدرس ، ويخرج لنا هذا الكتاب الذي إن صور شيئاً فإمما يصور الشجاعة والصبر والجلد والتجرد للعلم الخالص ، والفراغ لاستكشاف الحق من حيث هو حق ، مهما تكن الأحداث والخطوب والظروف . فأما دقة البحث وحسن الاستقصاء وجودة الاستنباط ، فإمما هي خصال العلماء . وصاحب هذا الكتاب عالم ممتاز بين العلماء .